تغطية الإسلام: كيف تتحكَّم أجهزة الإعلام ويتحكَّم الخبراء في رؤيتنا لسائر بلدان العالم

الكاتب: إدوارد سعيد.

النّاشر: رؤية للنّشر والتّوزيع، القاهرة.

الصّفحات: 352 صفحة.

سنة النّشر: 1981م.

مراجعة: رشا حسين الحاج *

مقدّمة

«أنا لا أُشارك الكثير مِنَ الخبراء وواضعِي السّياسات والمُثقّفين بصفّة عامّة إيمانهم القويّ والرّاسخ بمفهوم (الإسلام) لديهم، بل إنَّني على العكس من ذلك، كثيرًا ما أرى فيه عقبة، بدلًا من أن يكون عونًا على تفهّم الدّوافع التي تُحرّك النّاس والمجتمعات. أمَّا ما أُؤمن به حقًّا، فهو وجود حاسَّة نقديّة، ووجود المواطنين القادرين والمُستعدّين لاستخدامها في تخطِّي وتجاوز المصالح الخاصّة للخبراء وأفكارهم التّقليديّة. ويستطيع كلّ قارئ أن يعتمد على المهارات التي يتمتَّع بها صاحب النّظرة النّقديّة الصّائبة في التّمييز بين الخطأ والصّواب... وأن يطرح

* ماستر تاريخ - الجامعة اللبنانيّة.

الأسئلة المناسبة ويتوقَّع الإجابة المُناسبة، ومن ثَمَّ يتمكَّن مِن معرفة ما يريد... وعندها تبدأ المعرفة الإنسانيّة الحقَّة، ويبدأ النّاس في تحمُّل المسؤوليّة الجماعيّة عن تلك المعرفة، وما كَتبتُ هذا الكتاب إلّا في سبيل ذلك الهدف».

هذا الكتاب هو الثّالث والأخير من سلسلة الكتب التي حاول فيها «إدوارد سعيد» تناول العلاقة القائمة في العصر الحديث بين عالَم الإسلام والعرب والشّرق من ناحية، والغرب وفرنسا وبريطانيا والولايات المتّحدة من ناحية أخرى. كتابه الأوّل «الاستشراق» كان أشدُّ الكتب تعميمًا، والأساس الفكريّ الذي يقوم عليه هو الارتباط الوثيق بين المعرفة والسّلطة. وكتابه الثّاني «المسألة الفلسطينيّة» يَعرِض للصّراع بين السّكّان العرب الأصليّين في فلسطين والحركة الصّهيونيّة ذات المنشأ الغربيّ.

أمَّا هذا الكتاب «تغطية الإسلام»، فهو حول المواقف الغربيّة والمواقف الأمريكيّة بشكل خاصّ إزاء العالم الإسلاميّ الذي بدأ الغربيّون يَرَوْن، منذ مطلع السّبعينيّات، أنَّ له صلة وثيقة بهم، ومع ذلك فهو يموج بالقلاقل المعادية لهم، ويمثّل مشكلة لهم.

يرى سعيد أنَّ مصطلح «الإسلام»، في السّياقات التي يُستعمل فيها اليوم، ليس له دلالة واقعيّة، ولا يزيد على كونه بطاقة إيديولوجيّة، ولا يتجاوز الحدود الدّنيا في الإشارة إلى الدّين الإسلاميّ. ولقد شغلت أجهزة الإعلام الغربيّة بتغطية الإسلام، خصوصًا منذ أنْ لفتت أحداث إيران أنظار النّاس في أوروبّا وأميركا إليه، ولكنّ هذه التّغطية هي تغطية مُضلّلة، ولو بدت شاملة، ومصدر التّضليل فيها أنَّها توحِي لِمَن يتلقّون الأنباء بأنَّهم قد فهموا الإسلام.

تصوير الإسلام في الأخبار

عندما أرادت شركة إديسون المتّحدة بنيويورك، شركة «كون إيد»، أن تُقنع الأمريكيّين بضرورة توفير مصادر بديلة للطّاقة، أذاعت إعلانًا تلفزيونيًّا مثيرًا، في عام 1980م، يتضمَّن لقطات متحرّكة لبعض الشّخصيّات المعروفة في منظّمة البلدان المصدِّرة للنّفط «أوبك». وقتذاك، قال المذيع بصوت المنذر: إنَّ «هؤلاء الرّجال» يتحكَّمون في مصادر النّفط الأمريكيّة. أراد أن يعتريَ الأمريكيّين مزيجٌ من مشاعر الغضب والاستياء والخوف، فقد كانت هذه المشاعر هي التي عمدت

شركة «كون إيد» إلى إثارتها واستغلالها فورًا لأسباب تجاريّة محلّيّة. ويتضمّن إعلان شركة «كون إيد» عُنصرَيْن يُشكّلان معًا موضوع هذا الكتاب: الأوّل، صورة الإسلام في الغرب عامّة، وفي الولايات المتّحدة بصفة خاصّة. والثّاني، هو استخدام هذه الصّورة في الغرب، وخصوصًا في الولايات المتّحدة.

منذ أواخر القرن الثّامن عشر، نجد، في ما يتعلّق بتاريخ العلاقات بين الإسلام والغرب المسيحيّ، ما يُطلَق عليه صفة التّفكير الاستشراقيّ، وهو يقوم على هيكل جغرافيّ يُقسّم العالَم إلى قسمَيْن غير متساويَيْن: الشّرق «المختلف» والغرب «عالمنا». ولمّا كان الإسلام ينتمي في نظرهم دائمًا إلى الشّرق، أصبح مصيره الخاصّ داخل هيكل الاستشراق العامّ هو أن ينظروا إليه كما لو كان وحدة متجانسة، بمشاعر العداء والخوف. ثمّ جاء عام 1978م، لتحتلّ إيران قلب مسرح الأحداث وتتسبّب في إحساس الأمريكيّين بمشاعر متزايدة مِنَ القلق والتّوتّر. كان النّظام الإسلاميّ الجديد في إيران يتمتّع بشعبيّة ويتّسم بعدائه للإمبرياليّة، فاستولى حضور آية الله الخمينيّ على أجهزة الإعلام التي وصفته بأنّه عنيدٌ وقويٌّ وغاضبٌ أشدّ الغضب من الولايات المتّحدة.

وكمثال للعداء العامّ للإسلام، يذكر سعيد ما أشار إليه «نايبول» (V.S. Naipaul) في مقابلة صحفيّة نشرتها مجلّة «نيوزويك إنترناشونال» (Newsweek International) في آب 1980م: «الأصوليّة الإسلاميّة تفتقر إلى أيِّ جوهر فكريّ؛ ومن ثَمَّ فلا بُدَّ من أن تنهار». ويُعلّق على كلامه بأنّه لم يُحدِّد الأصوليّة الإسلاميّة التي يَعنيها، ولا الجوهر الفكريّ الذي يشير إليه، وإن كان يقصد إيران من دون شكّ، وأيضًا موجة العداء للإمبرياليّة من جانب الإسلام في العالَم الثّالث. فالمعروف أنَّ «نايبول» يُضمِر كراهيّة مريرة لهذه الموجة. ففي آخر روايتَيْن له: «رجال حرب العصابات» و«مُنحنًى في النّهر»، يُشكّك المؤلِّف في الإسلام. فقد دأب الخبراء الأكاديميّون والرّوائيّون والصّحفيّون وواضعُو السّياسات على طرح مصطلح «الإسلام» الذي يشمل ـ لديهم ـ جميع جوانب العالم الإسلاميّ الشّاسع، واختزالها جميعًا في جوهر خاصّ يُضمر الشرّ، في إطار أيديولوجيّ اخترعوه أو حدَّدت الثّقافة صورته، فامتلأ بالانفعال والتّعصّب والنّفور.

ويرى سعيد أنَّه لا بُدَّ من رصد وجه الاختلاف بين الوعي الأمريكيّ والوعي الأوروبّيّ بالإسلام، فقد كانت موجة الاهتمام الأوروبّيّ في العصر الحديث

بالإسلام تُمثّل أحد عناصر ما وُصِفَ بأنَّه «النّهضة الاستشراقيّة»، ولكن لم يكن الإسلامُ يشغل مكانًا متميّزًا في أمريكا قبل الحرب العالميّة الثّانية؛ إذ كان الخبراء الأكاديميّون عادةً ما يقومون بدراساتهم للإسلام في أركان هادئة في مدارس اللّاهوت، بعيدًا من الأضواء الباهرة للاستشراق وبعيدًا من صفحات المجلّات الكبرى. وفي أعقاب الحرب العالميّة الثّانية، نهضت الولايات المتّحدة بالدّور الإمبرياليّ الذي كانت تنهض به فرنسا وبريطانيا، ووضعت مجموعة من السّياسات اللّازمة للتّعامل مع العالَم الخارجيّ بما يتناسب ومشكلات كلّ إقليم يؤثّر في مصالح الولايات المتّحدة ويتأثَّر بها. وكان واضعو السّياسات الأمريكيّون يعدّون بلدان العالم الثّالث بلدانًا «مُتخلّفة»، تتَّسم بأساليب حياة «تقليديّة».

وما إن حلَّت الثّورة الإسلاميّة الإيرانيّة حتَّى تبلورت مفاهيم من قبيل: «أزمة الهلال»، و«قوس القلقلة»، و«عودة الإسلام». وخصَّصت مجلّة «تايم» (TIME Magazine) موضوعها الرّئيس للإسلام، وزيَّنت غلافها بلوحة للفنَّان الفرنسيّ «جيروم» (Gérôme) تُصوِّر مؤذّنًا ملتحيًا يقف على مئذنةٍ ويدعو المؤمنين إلى الصّلاة، وكانت اللّوحة تتميَّز بالتّنميق الشّديد والمبالغة الصّارخة مثل جميع فنون الاستشراق التي شهدها القرن التّاسع عشر. ومن دلائل التّناقض الزّمنيّ أن تكون هذه اللّوحة مزيّنة بكلمات لا علاقة لها بها، وهي «إحياء الجهاد»، فرأى سعيد هذا الغلاف أفضل دلالة على الفرق بين موقف أوروبّا وموقف أمريكا تُجاه موضوع الإسلام؛ إذ حوّلَت المجلّة لوحة هادئة زخرفيّة، كانت تُعدُّ في أوروبّا جزءًا من الثّقافة العامّة، إلى صورة قادرة ـ بفضل الكلمتَيْن المضافتَيْن ـ على الدّلالة على ما يشغل العقل الأمريكيّ إلى حدِّ الهوس.

ولمَّا كانت الولايات المتّحدة مجتمعًا مُركّبًا يتكوَّن من ثقافات فرعيّة عدّة، كان لا بُدَّ من تقديم، عبر طريق أجهزة الإعلام، ثقافة مشترَكَة وموحَّدة إلى حدٍّ ما، معارِضة لقوّة الإسلام. وتختلف أجهزة الإعلام الأمريكيّة عن أجهزة الإعلام

الفرنسيّة والبريطانيّة بسبب الاختلاف البالغ بين المجتمعات، واختلاف الجمهور بين البلدين، واختلاف المؤسّسات والمصالح.

ويعتقد سعيد أنّه مع الشّعور بتوتّر سياسيّ حادّ بين الغرب والشّرق و«الإسلام» التّابع له، يظهر النّزوع في الغرب إلى العزوف عن اللّجوء إلى العنف مباشرة، بل اللّجوء أوّلًا إلى رسم صورة الخصم بالأدوات والوسائل الهادئة التي تتمتّع بالتّجرّد النّسبيّ، وهكذا يزداد وضوح صورة «الإسلام» ويظهر «الطّابع الحقيقيّ» لمَا يُمثّله من تهديد، وهو ما يُوحي ضمنًا بالخطوات التي سوف تُتّخذ إزاءه.

وصورة الإسلام عند أجهزة الإعلام والباحث الغربيّ ثمرةُ فعلٍ إراديّ وتفسير معيَّن، وهما من الأفعال التي لا تحدث إلّا في سياق تاريخيّ، ولا يمكن لنا، برأي سعيد، إلّا أن ننظر إليها في هذا الإطار التّاريخيّ لكونها من أفعال الإرادة والتّفسير. ولمَّا كانت أجهزة الإعلام شركاتٍ تسعى إلى تحقيق الرّبح، فإنَّها تهتمُّ بترويج صورٍ معيّنة للواقع وتقديمها أهمّيّة على غيرها في سياق سياسيّ يكتسب حيويّته وتأثيره من أيديولوجيّات قائمة على مستوى اللاوعي.

وألقى سعيد الضّوء على أقوال «رودنسون» (Rodinson Maxime) بشأن أهمِّيّة رصد التّعاليم الأساسيّة لدين المسلمين، على نحوِ ما ورد في القرآن الكريم، وإنزالها منزلتها الفريدة. فذاك هو المستوى الأوّل والأساسيّ الرّاسخ لهُويّة العقيدة الإسلاميّة، وإنْ كانت صور تفسيرها وتطبيقها في الحياة الواقعيّة قد تبعدنا منها. وفي المستوى الثّاني رصد شتَّى التّفسيرات المتضاربة للقرآن الكريم التي نشأت عنها الطّوائف الإسلاميّة المتعدّدة، لمعرفة أيّ صورة للإسلام نقصد، بل وأيّ فئة من فئاته. أمَّا المستوى الثّالث، فيتضمَّن ممارسات الأيديولوجيّات المختلفة وأساليب تطبيقها في حياة النّاس. ويرى سعيد إذا أضفنا إلى هذه المستويات الثّلاثة للإسلام أعداد المسلمين الهائلة في الماضي والحاضر والمستقبل، والامتداد التّاريخيّ «لانتشار الإسلام»، والظّروف الجغرافيّة مُذهلة التّنوع للمجتمعات الإسلاميّة، فسوف نتفهَّم الدّلالات السّياسيّة المترتّبة على ما تفعله أجهزة الإعلام الغربيّة.

ويذكر سعيد الأزمة الدّبلوماسيّة بين المملكة المتّحدة والمملكة العربيّة السّعوديّة، والتي أدَّت إلى سحب السّفير السّعوديّ من لندن ومقاطعة السُّيّاح السّعوديّين لإنجلترا، بسبب فيلم بعنوان «موت أميرة» لمخرج سينمائيّ بريطانيّ يُدعى

«أنطوني توماس». رأى السّعوديّون أنَّ الفيلم يُمثّل إهانة للإسلام، ويُقدّم صورة خاطئة عن المجتمع العربيّ بصفة عامّة، وعن العدالة السّعوديّة بصفة خاصّة. ويقوم الفيلم على حادثة إعدام إحدى الأميرات مع عاشق لها من أبناء الشّعب، ويتّخذ شكل الدّراما الوثائقيّة التي يبحث فيها أحد الصّحفيّين عن الحقيقة. فالصّحفيّ البريطانيّ يحاول أن يعرف ما حدث للعاشقَيْن، فيُسافر من أجلِ ذلك إلى بيروت ليتحدَّث مع اللّبنانيّين والفلسطينيّين، ثُمَّ يسافر إلى المملكة العربيّة السعوديّة، حيث يتعرَّض للمماطلة والمراوغة من جانب المسؤولين. ويُفسّر الجميع قصّة الأميرة كونها رمزًا لمعضلتهم السّياسيّة والأخلاقيّة. فالفلسطينيّون يَرَوْنَ أنَّ الأميرة مثلهم؛ منبوذة تسعى إلى الحرِّيّة والتّعبير عن نفسها سياسيًّا. واللّبنانيّون يَرَوْنَ فيها نموذجًا للصّراع القائم بين العرب، والذي أدّى إلى تمزيق لبنان. والسّعوديّون يَرَوْنَ أنَّ القضيّة تخصّهم وحدهم وتُسيء إلى النّظام الحاكِم. وتبقى نهاية الفيلم مفتوحة. ويرى سعيد أنَّ مثل هذا الفيلم يُمكن إنتاجه وعرضه فيأتي بعواقب أخطر من أيِّ عواقب يمكن أن يأتي بها فيلم سعوديّ يُعدّ مسيئًا إلى المسيحيّة أو إلى الولايات المتّحدة.

قصّة إيران

قامت مجموعة مِنَ الطّلّاب الإيرانيّين باحتلال سفارة الولايات المتّحدة في طهران واحتجاز عدد كبير من الرّهائن الأمريكيّين. وبدأت إيران تشغل جانبًا كبيرًا من نشرات الأنباء المسائيّة في الشّبكة الإعلاميّة؛ على امتداد شهور متعاقبة خصّصت شركة «إيه بي سي» برنامجًا تلفزيونيًّا يوميًّا خاصًّا بعنوان «احتجاز أميركا رهينة»، وقدَّم برنامج تقرير «ماكنيل/ ليرار» الذي تُقدّمه هيئة الإذاعة العامّة «بي بي سي» عددًا من الحلقات لم يسبق لها مثيلٌ عن الأزمة. وانتشرت التّحقيقات الصّحفيّة في كلِّ مكان عن «الإسلام الشّيعيّ»، وإن كان المدهش أن لا تتعرَّض إلّا مقالات محدودة نسبيًّا لتاريخ إيران الحديث، والمقاومة السّياسيّة التي أبداها رجال الدّين الإيرانيّون للتّدخل الأجنبيّ وللحكم الملكيّ، وقدرة آية الله الخمينيّ على إسقاط الشّاه، والانتصار على جيشٍ لم يُهزم في حربٍ مِنَ قَبْل.

نشرت صحيفة «سانت لويس بوست دسباتش» (St. Louis Post-Dispatch newspaper) محضر حلقة العمل التي عُقدت في مدينة «سانت

لويس» حول إيران والخليج، جاء فيه أنَّ أحد الخبراء قال: «إنَّ ضياع إيران، بقيام شكل من أشكال الحكومة الإسلاميّة، يُعدُّ أكبر نكسة واجهتها الولايات المتّحدة»؛ أي أنَّ الإسلام، تعريفًا، معادٍ لمصالح الولايات المتّحدة.

وأشار سعيد إلى ما كتبه «أ. شانش» في صحيفة «لوس أنجلس تايمز»؛ إذ يقول لمّا كان الدّستور الإيرانيّ الجديد «من أغرب الوثائق السّياسيّة في العصر الحديث»، ولمّا كان لا يُشبه الدّستور الأمريكيّ شبهًا كبيرًا (فهو يخلو مِنَ الضّوابط!)، فإنَّ صعود الخمينيّ إلى السّلطة لا يقلّ سوءًا عن جلوس الشّاه على العرش. ولكنَّ الواقع يقول إنَّ الدّستور الإيرانيّ الجديد ينصّ، نظريًّا على الأقل، على «الأحكام الخاصّة بانتخاب رئيس الجمهوريّة ونوّاب البرلمان انتخابًا شعبيًّا وعلى وجود جهاز قضائيّ مُنظَّم».

وعندما تُحاول صحيفة «نيويورك تايمز» أن تشرح المقاومة الإيرانيّة المدهشة للغزو العراقيّ، نجدها قد لجأت إلى مقولة أنَّ «للشّيعة وَلَعًا بالاستشهاد». وكثيرًا ما تبعث الصّحيفة بمُراسِلها إلى بلدٍ غريب، من دون الاستعداد، ومن دون الخبرة، ومن دون معرفة لغة البلد. ومن المفيد المقارنة بين التّحقيقات الصّحفيّة التي تغطّي «الإسلام» في التّايمز، وصحيفة «لوموند» الفرنسيّة (Le Monde)؛ إذ إنَّ «التايمز»، كبرى الصّحف الأميركيّة، جعلت «فلورا لويس» (Flora Lewis) تعدّ التّحقيق بسرعة، فهي لا تناقش القضايا اللّاهوتيّة أو تاريخ المدارس الإسلاميّة المختلفة وهياكلها التي تُلهب نيران «الفورة» التي تحاول توثيقها، ولكنّها تستعيض عن ذلك بالاعتماد على مقتطفات عشوائيّة مقتبَسَة من أفواه من اختارتهم بشكل عشوائيّ، ولا تُقدّم الجوانب الحقيقيّة للحياة الإسلاميّة، سواءٌ كانت خاصّة بالمبادئ الميتافيزيقيّة أو بالسّياسيّة.

أمَّا «لوموند»، كُبرى الصُّحف الفرنسيّة، فقد كلّفت «مكسيم رودنسون» (وهو مستشرق ماركسيّ فرنسيّ، تقتطف «فلورا لويس» أقواله) بدراسة الظّاهرة نفسها لمدَّة عام كامل، وهو الذي يلمّ بالموضوع إلمامًا تامًّا، ويعرف اللّغة، ويعرف الدّين، ويفهم السّياسة. فحاول أن يُبيِّن طبيعة القوى القائمة في المجتمع الإسلاميّ، وفي التّاريخ الإسلاميّ، والتي تضافرت مع «التّشكيلات» السّياسيّة الحاليّة حتّى أدّت إلى الأزمة الرّاهنة. وقدَّم لنا خبرة متكاملة ذات دلالة عن الإمبرياليّة، والصّراع الطّبقيّ، والنّزاع الدّينيّ، والأخلاق الاجتماعيّة. فالنّظرة الفرنسيّة تقوم على الوعي

بأنَّها نظرة بديلة؛ أي أنَّها لا تشبه نظرة القوّة العظمى، بل وتختلف عن نظرة الأوروبيّين الآخرين.

ويرى سعيد أنَّ الأسئلة التي لم يستكشف أحدٌ أبعادها التي تكمن خلف الأزمة، والتي يجب التّعرُّض لها؛ ألا وهي: ما أهمِّيّة إيران؟ وما أهمِّيّة الإسلام؟ وما نوع المعرفة أو التّغطية التي تحتاجها؟ وهي جزء لا يتجزّأ من السّياسة المعاصرة، وجانبٌ حيويّ من جهود البحث الأكاديميّ وجهود التّفسير التي تتطلّب معرفة بالثّقافات الأخرى. وإنْ لم نلقِ نظرة ترفع أستار الغموض عن العلاقة بين السّلطة والمعرفة في هذا السّياق، فسنكون قد تهرّبنا من مواجهة جوهر القضيّة.

المعرفة والسّلطة

أدّت روابطُ التّغطية «المعتمدة» للإسلام بالسّلطة إلى منحها القوّة والثّبات، وكذلك، وقبل كلّ شيء، الحضور. يُسوّق التّناغم بين أجهزة الإعلام والحكومة وخبراء الجغرافيا السّياسيّة -إلى جانب الأكاديميّين من ذوي الخبرة في الإسلام، على الرّغم من كونهم يشغلون مكانًا على هامش الثّقافة بوجهٍ عامّ- في تصنيف أنَّ الإسلام يُمثّل تهديدًا للحضارة الغربيّة.

تُرى، أيُّ لونٍ تكتسبه المعرفة بثقافة أخرى في الواقع حين تكون محاطة بسياجٍ من الافتراضات النّظريّة التي تقول إنَّ «أزمة الهلال» أزمة مُلِحّة عاجلة، من ناحيةٍ، وسياجٍ من الرّوابط المؤسّسيّة بين الدّراسة العلميّة، والشّركات التّجاريّة، والحكومة، من ناحيةٍ أخرى؟ وتُعلن السّياسة والضّغوط والأسواق عن أنفسها بطرائق مختلفة.

حتّى حين يعترف كاتب من الكُتّاب بما للضّغوط السّياسيّة الفظّة من تأثيرٍ في دراسات الشّرق الأوسط، فإنَّه يميل إلى إخفاء هذه الضّغوط، ومن ثَمَّ إلى إعادة السُّلطة «المعتمدة» إلى مَا يُسمَّى «الخطاب الاستشراقيّ». إنَّ السّلطة تنبُع من القوّة الكامنة في الثّقافة الغربيّة التي تسمح لدارسِي الشّرق أو الإسلام بأنْ يقولوا أقوالًا عن الإسلام وعن الشّرق ظلَّت سنوات عدَّة لا تقبل الطّعن فيها تقريبًا. ويرى سعيد أنَّ «المباحث العلميّة» تُعدّ مؤسّسات أكثر ممَّا تُعدّ أنشطة، وأنَّها تُحدّد تنظيم المعايير لمَا تدرسه ووضعها، من خلال تقديم المناهج التي تراها لازمة، بأيسَرَ ممّا تُحلِّل ذاتها أو تتأمَّل ما تفعل.

يشير إدوارد سعيد إلى شيوع نظرة أخرى للإسلام، أُطلق عليها صفة المعرفة

المضادّة، وتنقسم إلى ثلاثة أنماط رئيسة تُنتجها ثلاث قُوًى في المجتمع تتحدّى الصّورة السّائدة المعتمَدَة، وتعدّ المعرفة أساسًا ومطلبًا يسعى المرء جاهدًا إلى تحقيقه، ومجالًا لاختلاف الآراء، لا مجرَّد ترديد سلبيّ للحقائق والآراء المقبولة. تتكوَّن الأولى من مجموعة مِنَ الباحثين الشّبّان الذين يتّسمون بالمزيد من الحذق العلميّ، والمزيد من الأمانة السّياسيّة عن أقرانهم الكبار العاملين في هذا المجال، وهم يَرَوْنَ أنَّ دراسة الإسلام ترتبط بصورة ما بالنّشاط السّياسيّ للدَّولة. ويَرَوْنَ أنَّ انغماس الولايات المتّحدة في السّياسة العالميّة، والتي يرتبط جانبٌ كبير منها بالعالم الإسلاميّ، حقيقة لا ينبغي الصّمت إزاءها أو تقبّلها على أنّها واقع محايد. ويتميَّز هؤلاء عن المستشرقين الأكبر سنًّا بأنّهم يُرحّبون بالأدوات المنهجيّة التّجديديّة، مثل: الأنثروبولوجيا البنيويّة، والمناهج الكمِّيّة، والطّرائق الماركسيّة للتّحليل، ويبتغون تعديل المناهج القائمة وتنقيحها.

وتتكوَّن المجموعة الثّانية من باحثِين أكبر سنًّا، يتّبعون مناهج معارضة للدّراسات المعتمدة السّائدة في هذا المجال، ومن المحال وضع تلخيص مُنصِف للخصائص المنهجيّة والأيديولوجيّة لهم، ولكن اللّافت للنّظر أنَّه ليس من بينهم مَن ينتمي إلى «مؤسّسة» دراسات الشّرق الأوسط أو يعمل مستشارًا للحكومة أو للشّركات. وقد يكون ذلك ما حرّرهم ومكّنهم من رؤية ما أهمله الكُتّاب التّقليديّون عن الإسلام وتجاهلوه.

أمَّا المجموعة الثّالثة، فتتكوَّن من الكُتّاب والدّعاة والمفكّرين الذين لا يُعدّون من الخبراء المعتمدين عن الإسلام، وإن كانت معارضتهم لمَا هو شائعٌ بصفة عامّة هي التي تُحدِّد دورهم في المجتمع، وهؤلاء هم الرّاديكاليّون، والمناضلون المناهضون للحرب وللإمبرياليّة. وإن كان بعضهم قد تأثّر بالاستشراق الثّقافيّ الشّائع، إلّا أنّ نظرتهم إلى الإسلام لا يكاد يربطها شيء بمذهب الاستشراق. وما يدعو للإعجاب أنَّ هؤلاء الأشخاص لا يحملون شهادات خبرة رسميّة بالإسلام، ولكنّهم استطاعوا رغم ذلك أن يتفهَّموا ديناميّات معيّنة داخل عالَم ما بعد الاستعمار، ولديهم اهتمام بمبدأ التّبادل والمبادلات، وقد اختاروا متعمّدين أن يتجاوزوا ما رسمته الحكومات من خطوط صارمة للعداوة بين الشّعوب.

يرى سعيد في نهاية كتابه أنَّ كلّ معرفة تفسير، وأنَّ على التّفسير أن يكون شديد الحساسيّة في ما ينتهجه من مناهج وما يضعه من أهداف حتّى يتحلّى باليقظة

وبالتّراحم الإنسانيّ، وحتّى يصل أيضًا إلى المعرفة. ولكن كلّ تفسير للثّقافات الأخرى، وخصوصًا للإسلام، ينطوي أساسًا على الاختيار الذي يُواجهه الباحث أو المُفكِّر الفرد: هل يُسخِّر الفكر لخدمة السّلطة، أم لخدمة النّقد والمجتمع؟ وإذا كان تاريخ المعرفة بالإسلام في الغرب قد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالغزو والهيمنة، فلقد آن الأوان لقطع هذه الرّوابط قطعًا مُبرمًا، وإلّا سوف نُقدّم إلى عالم المسلمين، وإلى شتّى مجتمعاتهم ودولهم، احتمال نشوب حروب كثيرة، ومعاناة لا يتصوّرها العقل، ومولد نوع من «الإسلام» المتأهّب للنّهوض بالدّور الذي أعدَّته له قوى الرّجعيّة والتّزمُّت واليأس.